العدد 1913 - السنة السابعة
الثلاثاء 17 رمضان 1435 - الموافق 15 يوليو 2014
Tuesday 15 July 2014 - No.1913 - 7th Year

جامع الزيتونة التونسي يعد حصناً للغة العربية والشريعة

جامع الزيتونة احد معالم تونس وسمي الجامع بالزيتونة نسبة إلى شجرة زيتون كانت بجانبه عند إنشائه.

ومعلوم أن شجرة الزيتونة شجرة مباركة ورد ذكرها في كتاب الله مع وصفها بذلك، فمن هنا أطلق اسمها على المسجد الجامع في تونس إذ ذاك...

وفي الحقيقة فإن مسجد الزيتونة اسم سمي به أكثر من مسجد في المشرق والمغرب، منها مسجد الزيتونة بالقيروان في تونس نفسها، ومنها ثلاثة مساجد في دمشق تعرف بمسجد الزيتونة ذكرها يوسف بن عبدالهادي في كتابه «ثمار المقاصد»...

إلا أن هذا الاسم إذا أطلق فأول ما يتبادر إلى الذهن المسجد الجامع في مدينة تونس، وهو محل حديثنا.

جامع الزيتونة أول جامعة في العالم الإسلامي و هو جامعة وجامع بمدينة تونس، يعد ثاني الجوامع التي بنيت في «افريقية» بعد جامع عقبة بن نافع في القيروان، يرجح المؤرخون أن من أمر ببنائه هو حسان بن النعمان عام 79 هـ وقام عبيد الله بن الحبحاب بإتمام عمارته في 116 هـ736م.

إنه سرّة مدينة تونس والنواة التي تكوّنت ونمت حولها الحاضرة كما نعرفها اليوم.

قيل إنّ المكان في الأصل خلوة لناسك مسيحيّ وكانت بالقرب منه زيتونة فنسب الجامع إليها.

كان جامع الزيتونة محور عناية الخلفاء والأمراء الذين تعاقبوا على إفريقية ، إلا أن الغلبة كانت للبصمات الأغلبية ولمنحى محاكاته بجامع القيروان وقد منحته تلك البصمات عناصر يتميز بها إلى اليوم.

وتتمثل أهم هذه العناصر في بيت صلاة على شكل مربع غير منتظم وسبع بلاطات مسكبة معمدة تحتوي على 15عقرا مربعا وهي مغطاة بسقوف منبسطة. وقد اعتمد أساسا على الحجارة في بناء جامع الزيتونة مع استعمال الطوب في بعض الأماكن.

وتتميّز قبّة محرابه بزخرفة كامل المساحة الظاهرة في الطوابق الثلاثة بزخارف بالغة في الدقة تعتبر الأنموذج الفريد الموجود من نوعه في العمارة الإسلامية في عصورها الأولى.

باني الجامع

لقد اختلفت الروايات حول تحديد من قام ببناء هذا الجامع الذي بات ذكر تونس مقترنا به، ومكن افريقية من سبق تأسيس أول جامعة علمية إسلامية. فالبكري في كتابه «المسالك والممالك» وابن خلدون في كتابه « العبر» وكذلك السرّاج صاحب «الحلل السندسيّة في تاريخ البلاد التونسيّة» وحسن حسني عبد الوهاب في كتابه «خلاصة تاريخ تونس» يرون أن باني الجامع هو عبيد الله ابن الحبحاب سنة « 731 م».

تاريخ بناء الجامع

لقد تأسس في تاريخ معلوم جيّدا «سنة 732 للميلاد»، ولكن أعيد بناؤه في أواسط القرن التاسع. ومنذ تلك الفترة أدخلت عليه تغييرات وترميمات عديدة، وحرصت كل دولة على تجميل مظهره وتحسين سير الدروس فيه، اذ يعتبره البعض أوّل جامعة إسلامية. ويعود آخر إصلاح شمله إلى سنة 1894، حيث جدّدت المئذنة التي يبلغ ارتفاعها 44م. لذلك يعدّ هذا التاريخ منطلقا لتطوّر فنّ البناء في هذه البلاد منذ بداية العهد الوسيط، بل قبل ذلك إذا أخذنا في الاعتبار المواد التي أعيد استخدامها والتي ادمجت في صلب المبنى، مثل بعض السواكف الرخامية المنحوتة، أو غابة الأعمدة والتيجان التي تدعم سقف المسجد، أو باحات الأروقة الخارجيّة وأغلبها ينتمي إلى العهدين الروماني والبيزنطي.

ويشكل المسجد والساحة والباحات المحيطة بها، والتي يتمّ الدخول منها، نواة جامع الزيتونة في حدّ ذاته. وبالإضافة إليها توجد ملحقات وتوابع مثل المبضاة أو المكتبة التي تأسّست سنة 1450

أول جامعة إسلامية

لم يكن المعمار وجماليته الاستثناء الوحيد الذي تمتّع به جامع الزيتونة ، بل شكّل دوره الحضاري والعلمي الريادة في العالم العربي والإسلامي إذ اتخذ مفهوم الجامعة الإسلامية منذ تأسيسه وتثبيت مكانته كمركز للتدريس وقد لعب الجامع دورا طليعيا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب وفي رحابه تأسست أول مدرسة فكرية بإفريقية أشاعت روحا علميّة صارمة ومنهجا حديثا في تتبع المسائل نقدا وتمحيصا ومن أبرز رموز هذه المدرسة علي ابن زياد مؤسسها وأسد بن الفرات والإمام سحنون صاحب المدوّنة التي رتبت المذهب المالكي وفقنته.

وكذلك اشتهرت الجامعة الزيتونية في العهد الحفصي بالفقيه المفسّر والمحدّث محمد بن عرفة التونسي صاحب المصنفات العديدة وابن خلدون المؤرخ ومبتكر علم الاجتماع.

وقد تخرّج من الزيتونة طوال مسيرتها آلاف العلماء والمصلحين الذين عملوا على إصلاح أمّة الإسلام والنهوض بها. إذ لم تكتف جامعة الزيتونة بأن تكون منارة تشع بعلمها وفكرها في العالم وتساهم في مسيرة الإبداع والتقدم وتقوم على العلم الصحيح والمعرفة الحقة والقيم الإسلامية السمحة، وإنما كانت إلى ذلك قاعدة للتحرّر والتحرير من خلال إعداد الزعامات الوطنية وترسيخ الوعي بالهوية العربية الإسلامية ففيها تخرج المؤرخ ابن خلدون وابن عرفة وإبراهيم الرياحي وسالم بوحاجب ومحمد النخلي ومحمد الطاهر بن عاشور صاحب تفسير التحرير والتنوير، ومحمد الخضر حسين شيخ جامع الأزهر ومحمد العزيز جعيط والمصلح الزعيم عبد العزيز الثعالبي وشاعر تونس أبو القاسم الشابي صاحب «ديوان أغاني الحياة » والطاهر الحداد صاحب كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وغيرهم كثير من النخب التونسية والمغاربية والعربية.

لقد تجاوز إشعاع جامعة الزيتونة حدود تونس ليصل إلى سائر الأقطار الإسلامية ولعل المفكر العربي الكبير شكيب ارسلان يوجز دور الزيتونة عندما اعتبره إلى جانب الأزهر والأموي والقرويين أكبر حصن للغة العربية والشريعة الإسلامية في القرون الأخيرة لقد مرّت الآن أكثر من 1300سنة على قيام جامع الزيتونة والذي شهد ومنذ بنائه تحسينات وتوسعات وترميمات مختلفة بدءا من العهد الأغلبي حتى الوقت الحالي، ومرورا بالحفصيين والمراديين والحسينيين، وهم آخر ملوك تونس قبل إقرار النظام الجمهوري لذلك حافظ هذا الجامع باستمرار على رونقه ليبقى في قلب كل المناسبات، وليكون شاهدا على تأصل تونس في إسلامها منذ قرون وقرون.

ومع دوره كمكان للصلاة والعبادة كان جامع الزيتونة منارة للعلم والتعليم على غرار المساجد الكبرى في مختلف أصقاع العالم الإسلامي، حيث تلتئم حلقات الدرس حول الائمة والمشايخ للاستزادة من علوم الدين ومقاصد الشريعة وبمرور الزمن أخذ التدريس في جامع الزيتونة يتخذ شكلا نظاميا حتى غدا في القرن الثامن للهجرة عصر « ابن خلدون» بمثابة المؤسسة الجامعية التي لها قوانينها وتواميسها وعاداتها وتقاليدها ومناهجها وإجازاتها، وتشدّ إليها الرحال من مختلف انحاء المغرب العربي طلبا للعلم أو للاستزادة منه.

معالم رئيسية مهمة

ويتميز مسجد الزيتونة بانه يحتوي على أجمل ختمه للقرآن الكريم كتبت في البلاد التونسية، وقد تم الانتهاء منها وإهدائها للمسجد أيام الشيخ تاج الدين البكري باواخر القرن الثاني عشر الهجري. كما يتميز بوجود مزولة لضبط أوقات الصلاة حسب الفصول السنوية، وقد تم الاستغناء عنها اليوم بوجود الساعات الدقيقة، إلا انها «المزولة» كانت من قبل من اتقن الصناعات واضبطها للأوقات. كما يتميز بزخرفة فريدة تقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادي في كتل الحجارة التي تؤلف سنج العقود أو مداميك البناء داخل قبة المحراب. ولعل مهندس جامع الزيتونة قد استلهم فكر وتناوب اللونين من عقود جامع قرطبة التي فيها حجارة ذات الوان عديدة.

وبجامع الزيتونة منبر خشبي بديع يعود صنعه إلى عام 250هـ، وهو قريب الشبه بمنبر جامع القيروان وإن كان أصغر منه، إذ فيه اثنتان وعشرون حشوة مستطيلة الشكل في كل من الكتفين، مع أن كل حشوة تنفرد عن اخواتها ولا تشابهها. وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية على شكل مربعات ودوائر ومعينات محفورة بمهارة في الخشب حفرا غائرا مفرغا، لتضفي على المنبر جمالا ورونقا، بل وإجلالا ومهابة حتى زعم بعض أهل تونس - ولهم جميعا تعلق شديد بهذا المسجد - أن الدعاء بين حافتي المنبر مستجاب.

أوقاف كثيرة خاصة

ولكي يستمر جامع الزيتونة في أداء المهام الكثيرة التي يقوم بها من إقامة الصلوات ورفع تكبيرات المؤذنين وإحياء الأوقات الفاضلة بالقرآن والحديث والدعاء والعلم كثرت أوقاف أهل الخير من المسلمين من أمراء وأغنياء وغيرهم عليه.

يقول الحشائشي في كتابه «تاريخ جامع الزيتونة» ولأهل هذه الحاضرة - تونس - عمرها الله تعالى - تعلق شديد بهذا البيت - مسجد الزيتونة - وتشبث عظيم بلوحاته. حتى أنك تراه مرجعا لغالب أوقافهم ولهم في ذلك المنازع الغريبة، فمنهم من يوقف على الإمام، ومنهم على القارئ، أو المؤذن، ومنهم من يوقف على الحمام الوحشي - أي البري - الذي يأوي إليه.

وعلى سبيل المثال فحاكم تونس المتوفى عام 893هـ «عثمان المنصور الحفصي» بنى مبضاة في المسجد - وهي التي عرفت فيما بعد باسم مبضة السلطان - وأوقف عليها أوقافا كثيرة، وكان يسخن بها الماء زمن الشتاء.

وعلى سبيل المثال أيضا فإن قراءة ثلاثمائة قارئ كانوا يتسلمون معاشات من ريع أوقاف أهل الخير في مقابل مداومتهم على قراءة أحزاب مقررة من القرآن الكريم لكل منهم، فكانوا يتناوبون القراءة في المسجد في حلقات قد تبلغ خمسين حلقة، وربما كان لهم بين الظهرين دوي كدوي النحل.

جامع الزيتونة في رمضان

اما في رمضان فالعمل في مسجد الزيتونة جار على قدم وساق - كباقي مساجد الدنيا - فبعد صلاة العصر من السادس والعشرين من شهر رمضان يبتدئ الإمام الثالث رواية الشفاء للقاضي عياض، ثم يتلوه الإمام الثاني برواية مسلم، ثم يختم الإمام الأول برواية صحيح البخاري، وذلك بمحضر امير العصر ووزرائه والعلماء، والجامع غاص على اتساعه بالمسلمين. وفي الليل يقع ختم القرآن العظيم بصلاة التراويح، والناس يزدحمون على ابوابه، ويتبركون بعلى أعتابه.

أقدم جامعة في العالم

ومما يدلنا على بعض تلك التقاليد العلمية والأنظمة الإدارية أن الباي المشير أحمد باشا أصدر سنة 1258هـ أمرا بانتخاب 15 عالما من الأحناف، ومثل عددهم من المالك، يقوم كل واحد منهم بإعطاء درسين مما يطلب منه من العلوم، وخصص لكل واحد من هؤلاء العلماء راتبا شهريا يبلغ 60 ريالا يحرم منها من يتخلف عن التدريس لغير عذر شرعي...

ونتيجة استمرار التعليم في جامع الزيتونة على نظام معين، واعتماده الشمولية والتعددية في العلوم والفنون ووجود طرق محددة لامتحان الطلبة وتخريجهم، ووجود الموارد المالية الكافية لذلك منذ القديم يذهب البعض إلى أن جامع الزيتونة - بحق - هو أقدم جامعة في العالم. وكان المتخرجون من جامع الزيتونة يطلق عليهم لقب «الزيتوني».

والزيتوني في المجتمع التونسي كان يتمتع بمقام مرموق لأنه أعدل الفرق التي هو فيها، وهو الذي يبرم عقود البيع والشراء والإجارة والأنكحة، إضافة إلى كونه إمام المسجد والمدرس والواعظ وكاتب الرسائل الخاصة... وهو أيضا العالم الشاعر الأديب... الخ.

المكتبة القيمة

ولا ننسى أن ننوه بإعجاب إلى مكتبة جامع الزيتونة التي كانت عامرة منذ القديم، حتى وصل ما فيها إلى ما يزيد على مئتي ألف مجلد في قمة مجدها.

حوادث تاريخية للمكتبة

إلا أن ما لا ينسى بخصوص مكتبة جامع الزيتونة تلك الجريمة الحضارية النكراء التي ارتكبها الجنود الاسبان سنة 970، عندما استباحوا حرمة مسجد الزيتونة ضمن هياج عام لهم في تونس، فاطلقوا أيديهم في إتلافها، حتى صارت نفائس الكتب ملقاة في الطرق تدوسها خيلهم بارجلها، كما قاموا بسرقة كثير منها ونقله إلى اسبانيا أو إلى مكتبة البابا... ولا تزال خطوط وقفها على مسجد الزيتونة مثبتة عليها إلى اليوم. تنعي الاسبان جريمتهم وتثبت للمسلمين حقهم. واستمرت دموع مسجد الزيتونة تبكي مكتبته المنكوبة ردحا من الزمن حتى كان عهد أبي العباس أحمد باي من الملوك الحسينيين فأعاد لها نضارتها وجددها واعتنى بها، فعرفت المكتبة الموجودة هناك باسم المكتبة الأحمدية نسبة إليه.